

كتلة المحافظين والنخبة الإصلاحية. مائة الأصل وموجبات التحرر 1881 -  
1954م

Conservative bloc and reformist elite. The durability of the origin  
and the obligations of liberation 1881-1954



د. التجاني مياطة

tedjani-mayata@univ-eloued.dz

جامعة الوادي

أ. محمد حناي

mohammed-hannai@univ-eloued.dz

جامعة الوادي

تاريخ الاستلام: 2019/04/22 تاريخ القبول للنشر: 2019/05/20



ملخص:

شكّلت كتلة المحافظين بمنتسبيها رموز الجزائر الشّوامخ الذين ثبتوا قواعد الإصلاح وأرسوا قواعد العمل به وفيه، من خلال بثّ الوعي وتعليم النّشء والرّفيع من شأن الفكر بالوعظ والإرشاد والكتابة، فأسسوا بذلك للنخبة الإصلاحية قاعدة متينة يمكنها الوقوف عليها وتمتد بنائها على نفس المنوال بواسطة التّعليم والصّحافة.

لقد حملت كتلة المحافظين في قلبها وعقلها ووجدانها مشروع أمة، هذا المشروع عماده الإسلام ومقوّم الحفاظ عليه وترسيخه اللغة العربية، التي بلسانها نكون مُستقلين تمام

الاستقلال، على من أراد مسخ هويتنا وطمس بُعدنا الحضاري الإسلامي العربي الأمازيغي.

استغلت كتلة المحافظين ومن بعدها النخبة الإصلاحية التّعليم ومحاربة الجهل والخرافة كسبيل لتحسين مستوى تكوين الفرد الجزائري والرّقي بمعارفه ومداركه.

### الكلمات المفتاحية:

كتلة المحافظين - النخبة الإصلاحية - الفكر التحرري - الفعل التّعليمي - الجهد التّوعوي.

### Abstract:

The bloc of governors formed the symbols of Algeria, which established the rules of reform and laid down the rules of its work and in it, through raising awareness and educating young people and promoting thought by preaching, guidance and writing, thus establishing the reformist elite a solid base to stand on and build in the same way through education and the press.

The conservative bloc in its heart, mind and soul has carried on the project of a nation. This project is the pillar of Islam and the one who preserves it and establishes it in the Arabic language, in which we will be completely independent of those who wanted to undermine our identity and obliterate our civilized Arab-Amazigh civilization.

The Conservative bloc and then the reformist elite exploited education and the fight against ignorance and superstition as a way to improve the level of the Algerian individual and to develop his knowledge and knowledge.

**key words:** Conservative bloc, Reformist elite, Liberal thought, Educational action, Awareness effort.

## مُقَدِّمة:

الإصلاح سمّت وسيمة ثابتة في الشعب الجزائري، بل هي جبلة خلقت معه، فكان من أعظم الرموز شأنًا، وأكثر الشعوب عزماً لأجل مناصرة الحق ومقارعة الظلم، ودليلنا على ذلك الشيوخ "محمد الأخضر"، و"عبد الكريم الفكون"، وسيدي "خليفة بن حسن القماري". فبهم وبمن جاء بعدهم تواصلت مسيرة بث العلم ورفع راية الإصلاح في الخلق، حتى أفلت شمس دولة الإسلام من ربوع "الجزائر" سنة **1830م** وحلّ دمار الاحتلال الفرنسي، فتسلّم جيل آخر آمن بالمحافظة على الجزائر وطناً وهويتاً وحضارةً، أنه جيل كتلة المحافظين.

شكّلت كتلة المحافظين بمنسبها رموز الجزائر الشوامخ الذين تبنوا قواعد الإصلاح وأرسوا قواعد العمل به وفيه، من خلال بث الوعي وتعليم النشء والرفع من شأن الفكر بالوعظ والإرشاد والكتابة، فأسسوا بذلك للنخبة الإصلاحية قاعدة متينة يمكنها الوقوف عليها وتمتد بنائها على نفس المنوال بواسطة التعليم والصحافة.

ولأجل معرفة حلقة التواصل بين كتلة المحافظين والنخبة الإصلاحية في الفعل التعليمي والجهود التوعوي لأجل الرفع من مقدرات الشعب الجزائري ورصيده المعرفي والعلمي وبث الفكر التحرري بين ثنايا فيسفساه المجتمعية، يمكننا طرح الإشكالية التالية: ما مدى ترابط فعل كتلة المحافظين والنخبة الإصلاحية وتطابق برنامجهما في كي الوعي الجمعي الوطني من خلال التعليم والصحافة لأجل التحرر؟

مستعياً بعدة أسئلة هي:

- ✓ ما تعريف كتلة المحافظين وكذا النخبة الإصلاحية؟
- ✓ ما اسهامات كتلة المحافظين في بث الوعي وما الآليات التي استندت إليها؟
- ✓ ما هي القواعد المشكلة لفكر النخبة الإصلاحية؟
- ✓ ما الآليات التي استندت إليها النخبة الإصلاحية لتطبيق برنامجهما؟

## ✓ ما هو أثر الكتلتين في الحركة الوطنية الجزائرية؟

وهذا كله بهدف توضيح وحدة الفكر والمنهج التي تحلتا بهما كلاً من النخبتين المحافظة والإصلاحية، لأجل الدُود عن حياض مُقَوِّمات الأمة الجزائرية، وكذا استرجاع سيادتها.

### أولاً: تعريفات ومفاهيم:

لا يمكن لأي دارسٍ أن يتأتى له مناقشة أيِّ أفكار في أيِّ موضوع كان، إلا إذا قام بتحديد المفاهيم للمصطلحات التي يريد التحدث بها، فما مفهوم كلٍّ من "كتلة المحافظين" و "النخبة الإصلاحية"؟

**1- كتلة المحافظين:** عبارة "محافظ" تحمل بالنسبة للحركة الوطنية معنيين: معنى سياسي يتعلق بـ: «بقاء الحالة الرأهنة لمعارضة الأفكار الغربية، والتجنيس، والتجنيد الإجمالي في الجيش الفرنسي، وكل الخطط التي قد تدخل تغيرات متطرفة إلى المجتمع الجزائري»، ومعنى ثقافي يتعلق بـ: «الإبقاء على النظم الإسلامية، والتعليم العربي، والقيم القديمة»<sup>1</sup>.

كما حُصرت فئة المحافظين في المثقفين التقليديين والعلماء، قدماء المحاربين، والمرابطين وبعض الإقطاعيين الذين ينطبق عليهم هذا التعريف. وقُسمَ موقفها من الإصلاح إلى قسمين: فئة طالبت بالتغيير والإصلاح في إطار الحفاظ على مقوّمات الشخصية العربية الإسلامية للجزائريين، وكانت تمثل الأغلبية؛ وفئة نادى بنشر التعليم الفرنسي في أوساط الجزائريين والاستفادة من الثقافة الفرنسية ومثّلها كل من: الشيخ "عبد القادر الجاوي"، الشيخ "محمد سعيد بن زكري"، الشيخ "عبد الحليم بن سماية"، الشيخ "حمدان بن الونيسي"، و الشيخ "مولود بن الموهوب"<sup>2</sup>.

**2- النخبة الإصلاحية:** هم مجموعة العلماء الجزائريين العائدين من جامعات تونس والمشرق العربي، والمتأثرين بأفكار الشيخ "جمال الدين الأفغاني" وتلميذه الشيخ "محمد

عبد"، والزّامين سلفاً إلى تكوين ما يشبه الجمعية الدّينية والثّقافية وإشاعة المثل الإصلاحية في بلادهم(الجزائر)<sup>3</sup>.

وقد مثلها كل من: الشّيخ "عبد الحميد بن باديس"، الشّيخ "البشير الإبراهيمي"، الشّيخ "مبارك الميلي"، الشّيخ "طبيب العقبي"، والشّيخ "العربي التّبسي"<sup>4</sup>.

فكلا الكتلتين يتملكهما هاجساً واحداً، وهو المحافظة على مقوّمات الفرد الجزائري التي انبنت على سلامة العقيدة، والبقاء في دائرة حوض الإسلام، والتّعامل بحذر مع صنوف الحضارة الغربية.

ثانياً: دور كتلة المحافظين في بلورة الوعي الجمعي الوطني:

أدرت كتلة المحافظين أنه لا يمكن الدّهاب باتجاه التّحرر إلاّ بالتّعليم الهادف الحامل لرسالة التّوعية، ولا تثبيت لمرتكزات التّوعية إلاّ من خلال الصّحافة البانية للوعي السّياسي، فما هو الوعي السّياسي؟

**1- تعريف الوعي السّياسي:** هو إدراك الفرد لواقع مجتمعه ومحيطه الإقليمي والدّولي، ومعرفة طبيعة الطّروف السّياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تحيط به ومعرفة مشكلات العصر المختلفة، وكذلك معرفة القوى الفاعلة والمؤثرة في صناعة القرار وطنياً وعالمياً<sup>5</sup>.

وبهذا التّعريف يكون الوعي السّياسي هو طريق الفرد لمعرفة حقوقه وواجباته في ظلّ النّظام القائم، والتّعرف على الطّروف والمشاكل التي تُحيط به محلياً وعالمياً، كي يستطيع تحليلها والحكم عليها وتحديد مكانه وموقفه منها وبالتالي المساهمة في تغييرها أو تطويرها. وهذا التّعريف تضمن أربع محاور هي:

**1- الرؤية الشّاملة. 2- الإدراك النّاقذ. 3- الإحساس بالمسؤولية. 4- الرّغبة**

في التّغيير.

وإذا كانت مسؤولية الوعي السِّيَاسي تقع كما يرى علماء السِّيَاسة على عاتق منظمات المجتمع المدني، والوسائل الإعلامية، والأحزاب السِّيَاسية التي تُساهم في بلورة الفكر السِّيَاسي لدى الشُّعوب، فإنَّ هذه المسؤولية اضطلعت بها في الجزائر المحتلة كتلة المحافظين أولاً<sup>6</sup>.

لقد أدرك رجال كتلة المحافظين أنَّ غياب الوعي السِّيَاسي له آثار سلبية على بناء المجتمع الجزائري المنشود بناء سليماً، وكذلك يُفقد الرُّؤية الواضحة لنضوجه سياسياً وثقافياً، ويجعل قيم الحياة تنهار وتفقد توازنها وبريقها في وجدان النَّاس. وأنَّ أي تراجع أو ضمورٍ في مسيرة بناء الوعي السِّيَاسي سوف يُعطلُّ دور المجتمع ويُطفئ جمره العقل البشري.

كما اتضح لديهم أنَّ الشَّعب الجزائري لا يمكنه في ظلِّ غياب الوعي السِّيَاسي التَّعرف على واقعه المرير، ورصد مواطن القوة والضعف والعوامل المؤثرة فيه. وبذلك يصعب عليه التَّكهن بتداعيات الظُّروف السِّيَاسية التي تحيط به، وذلك بسبب حال الجهل والأمية التي وضعه فيها المستدمر الفرنسي.

فما هي الوسائل التي استخدمتها هذه الكتلة لتحقيق مثل هذا الوعي؟

## (2) - آليات كتلة المحافظين في بثِّ الوعي الوطني:

### (أ) - نشر التَّعليم:

لقد رأت كتلة المحافظين بأنَّ ضمانات الانتصار على المحتل الفرنسي تكمن في الحفاظ على مقوِّمات الشَّخصية الجزائرية، ومقاومة المشاريع الاستعمارية الهادفة إلى إذابة الجزائر وطمس معالم شخصيتها الوطنية، واقتلاعها من انتمائها الحضاري. وبذلك كانت ممثلة للثقافة العربية - الإسلامية في الجزائر، والمتحدثة باسم الجامعة الإسلامية فيها<sup>7</sup>.

كان رجال كتلة المحافظين ينادون بالإصلاح الاجتماعي، والتّعليم، ... هذا المتّمسك  
أستغل أحسن استغلال من طرف الكتلة، ومن حذا حذوها في إذكاء الرّوح الوطنية  
وملاء الجيل النّاشئ بالفكر التّحرري و توجيهه نحو التّمسك بإسلامه وعروبته والبحث في  
سبيل تحسين تكوينه للرقى بمعارفه. وكمثال على ذلك سلسلة المحاضرات التي أقيمت سنة  
1908م بمقر "جمعية الرّشيدية"<sup>8</sup>، والتي شارك فيها أشهر مثقفي الكتلة، منها محاضرة  
ألقاها الشّيخ "محمّد سعيد بن زكري" بعنوان: "الإسلام يسمح بدراسة اللغات  
والعلوم"، والتي من خلال عنوانها نستشف أنّه دعاهم فيها إلى التّعلم، وطلب العلوم  
التّكنولوجية التي لا يتنافى طلبها مع الإسلام؛ محاضرة ثانية ألقاها الشّيخ "عبد الحليم بن  
سماية" عنونها: "الأدب العربي" والمعروف لدينا أنّه لا أدب عربي دون اللغة العربية؛  
ومحاضرة ثالثة ألقاها الشّيخ "عبد القادر المجاوي" عنونها بـ: "حضارة العرب قبل  
الإسلام وبعده"<sup>9</sup>، وهي محاضرة لمعرفة البعد الحضاري والأخلاقي والإنساني عند العرب  
قبل الإسلام وبعده.

هذه المعارف المقدمة وبهذه الصّورة كان الهدف منها تكوين شخصية جزائرية متكاملة  
الجوانب المعرفية وافية لحال مسيرة العالم من حولها، وكل هذا الجهد لأجل مجابهة  
الاستعمار الذي كانت إحدى أهدافه فرنسة وتغريب الجزائر، من خلال تحطيم اللغة  
العربية وتعويضها بالفرنسية عن طريق المبشرين وأديرتهم ومدارسهم ومستشفياتهم<sup>10</sup>.

## ب) - الصّحافة:

استفادت كتلة المحافظين من قانون حرية الصّحافة الذي أُقرّ سنة 1881م، فراحت  
هذه النخبة التي تتكلم بلسان عربي فصيح وتكتب بقلم قوي التّعبير صريح، ترسم  
الخطوط العريضة لصحافة عربية جزائرية مسلمة تهتم بقضايا الدّاخل ومشاكل الأمة  
الإسلامية على حدّ سواء، فمن حسن إيمان المرء الاهتمام بأمر المسلمين، ومن اهتموا  
بأمر المسلمين داخلياً وخارجياً، نجد رائد الصّحافة الجزائرية الأستاذ "عمر بن قدور"

الذي أسس جريدة "الفاروق" بالجزائر العاصمة (1913 - 1915م)، وتعدُّ جريدة "الفاروق" أوَّل جريدة وطنية من حيث الولاء والانتماء والتَّوجه ترتقي إلى مصاف الجرائد العربية المعترية، وكانت إسلامية وطنية محضة طالما خدمت توجهها الذي أنشأت من أجله وهو الاهتمام بقضايا المسلمين وحلَّلت واقعهم المرير والتفتت بصفة خاصة إلى أحداث "تركيا" الدَّامية ناصحة ومحلَّلة<sup>11</sup>.

دعت جريدة "الفاروق" إلى الرُّجوع بالدين إلى منابعه الصَّافية الأوَّلى، ومقاومة كل دعاوى التَّحجر والجمود التي تقف أمام تطور المجتمعات الإسلامية مُنددة بأفكار الشَّبَاب الجزائريين المتفرنسين المقلدين للمدنية الغربية ولقد كانت تتوج "الفاروق" رأس صفحاتها بهذا الشُّعار:

### قلمي لسان ثلاثة بفؤادي ديني ووجداني وحبُّ بلادي<sup>12</sup>

وهو عنوان يختصر فيه صاحبه ترجمة حبِّه للإسلام، والعروبة، والجزائر.

ومن بين الصُّحف الوطنية التي ظهرت على السَّاحة الجزائرية جريدة "ذو الفقار" (1913 - 1914م) التي أصدرها الأستاذ "عمر راسم" بهذا الاسم، وهو اسم لسيف "الإمام علي بن أبي طالب" كرم الله وجهه في الجنة، وهي أوَّل جريدة عربية يقوم بأعباء تحريرها، وكتابتها ورسم صورها وإخراجها وطبعها شخص واحد، شعارها: "جريدة عمومية اشتراكية انتقادية"، وكان أسلوبها قوي اللهجة في الانتقاد. ومما اتخذته مبدأً لها، بُعدها عن السِّياسة، لأنَّها مهما دخلت في شيء إلاَّ أفسدته<sup>13</sup>.

لكن قول الأستاذ "عمر راسم" و "عمر بن قدور" أنهما لا يتدخلان في السِّياسة أمر لا يمكنهما تحقيقه من جانبهما لأنهما مسلمين ولا يمكن لهما إلاَّ أن يشاركا بآرائهما وأفكارهما في وضع حلول لمشاكل المسلمين والاهتمام بأحوالهم، ودليلنا على ذلك أنَّ الأستاذ "عمر راسم" تحدث في جريدته "ذو الفقار" على الحركة الصُّهيونية العالمية ونبَّه



وحذّر من مخاطرها على الأمة الإسلامية، والأستاذ "عمر بن قدور" تحدّث عن الحرب العالمية الأولى وحلّلتها وانتصر فيها للعثمانيين ضد الحلفاء<sup>14</sup>.

وهذا تعاطي في السّياسة من باب الاهتمام بشؤون المسلمين والدُّود عن حقوقهم، كما هو تثقيف وتوعية للداخل الجزائري في الشّأن السّياسي.

بظهور جريدتي "الفاروق" و "ذو الفقار" وحركة الصّحافة الجزائرية التي تعتبر في عمومها ردة فعل قوية ومدروسة لسد الفراغ الحاصل في الصّحافة العربية ضد الصّحافة الفرنسية، استفاد الشّعب الجزائري من هذه الأقلام والأفكار وتشبّع منها، وراح يتصدى للاحتلال وأفكاره ومخططاته، ونتجت لديه حالة من الوعي والتّعبئة باتجاه التحرر.

في خضمّ هذا الحراك وهذا الفعل التّوعوي والتّعبوي بُني فكر النُّخبة الإصلاحية، فما قواعد ومرتكزات هذه النُّخبة؟

### ثالثاً: قواعد ومرتكزات فكر النُّخبة الإصلاحية بالجزائر:

في ساحة المقاومة المستظلة بظلال الهدوء والمهادنة، المرتكزة إلى التّعليم والصّحافة، والتي كان عمادها أعضاء كتلة المحافظين المذكورين سابقاً، وفي ظلّ مسيرة هاته الكتلة كانت هناك تطورات تحصل بالشرق العربي، منها الكتابات الصّحافية الحاملة للفكر النّهضوي التي كانت تصل إلى "الجزائر" مع الحجاج وطلبة العلم كصحيفة "الجوائب" التي كانت تصدر بالأسيتانة<sup>15</sup>، وبرز الدّعوة إلى الجامعة الإسلامية التي استمرت طيلة خلافة السُّلطان عبد الحميد الثّاني<sup>16</sup>، وكذلك بروز التّيارات الدّاعية إلى القومية العربية<sup>17</sup>، ظهرت حركة اصلاحية جزائرية ألهمتها ودفعت بمسيرتها قُدماً زيارة الشّيخ "محمد عبده" إلى "الجزائر" في سبتمبر 1903م<sup>18</sup>.

هذه الرّيادة كرسّت التّواصل والتّرابط الرّوحي بين المشرق العربي ومغربه، وربطت "الجزائر" بأعلام النّهضة الإسلامية وأعطت دفعا تاريخياً للانتقال من القرن التّاسع عشر

إلى القرن العشرين، للخروج من حالة الانغلاق المفروضة على الشعب الجزائري إلى العالم، والتكثيف مع أحداثه وعلومه بالمعلومات الدقيقة التي كان يفتقر إليها المسلمون الجزائريون للتعرف على مسيرة الإسلام عبر العالم<sup>19</sup>.

كان لنزول الشيخ "محمد عبده" بدار الشيخ "عبد الحليم بن سماية" ومرافقته الدائمة له، سلوك له دلالة في أنّ كتلة المحافظين مقتنعة بالأفكار الإصلاحية، صحيح أنّ عدد منتسبي الكتلة قليل، لكنهم كانوا يتمتعون بتأثير فكري واجتماعي كاف للتأثير في تلامذتهم واستمالة الناس وكسب تعاطفهم للنزعة الجديدة، وإن كانوا أصلاء في هذه النزعة، فلا مانع من الاستزادة والاحتكاك بالعلماء<sup>20</sup>.

تمتعت كتلة المحافظين بسلطة معنوية مكنتها من إشاعة الإصلاح في مناطق نفوذها وعُرفت في ذلكم الحين باسم "حزب محمد عبده" ومن بين هؤلاء نهيك عن الشيخ "عبد الحليم بن سماية"، نجد الشيخ "عبد القادر الجاوي" و الشيخ "حمدان بن لونيبي". فالأول: كان معتدًا بدينه، وبشخصيته الجزائرية الإسلامية كلّ الاعتداد، تقرأ ذلك في أخباره، وتلمسه في مؤلفاته. كان يختلط بالعامّة في دروس وعظه، وكانوا يستفتونه في الدين، ويطلعونه على أسرارهم وأمراضهم، وكانت الخاصة تزوره في مجالسه، فيتفاوضون في أمراض الأمة، فعرف أمراضها والطرق الناجعة لعلاجها، فسلكها، فنجح نجاحاً كبيراً<sup>21</sup>.

هذا الفعل جعل المحتل الفرنسي يرتاع من جهاد الشيخ "عبد القادر الجاوي"، فراح يُراقب أعماله ويتابع حركاته، فقد ساءه إقبال الناس الكبير عليه، واجتماعه بهم ليقول لهم ما يريد، فأراد تحجيم حركته وتقيدها فدعاها للوظيف قبيل، لأنه كان يعلم إذا امتنع عن قبول وظيفة التدريس تحت نظر الحكومة، فإنّ الاحتلال يخلق له الأسباب فيمنعه من التدريس، أو يفرض عليه قيوداً تُقصر خطواته، ... وقد تسجنه أو تنفيه<sup>22</sup>.

وهذا السُّلوك الحذق درسٌ لتلاميذه لتعلم طرق التَّعامل مع الاحتلال وإدارته والتَّماهي معها بما يخدم مصالح الأمة الجزائرية، وهذا ما طبقتة جمعية العلماء فيما بعد.

تخرج على يد الشَّيخ "عبد القادر المجاوي" أفواج من الأساتذة، والأدباء، والشُّعراء، والقضاة كان لهم جميعاً دورهم في إثراء الثَّقافة العربية بالجزائر وتوعية وتعبئة الشَّعب الجزائري، من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: الشَّيخ "حمدان بن الونيسي"، الشَّيخ "المولود بن الموهوب"، الشَّيخ "أحمد الحبيباتي"، الشَّيخ "عبد الكريم باش تارزي" مفتي الحنفية بقسنطينة<sup>23</sup>.

أما الثَّاني: فقد كان شديد التَّأثير في مسار حياة كبار رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، منهم: الشَّيخ "عبد الحميد بن باديس"<sup>24</sup>، الشَّيخ "مبارك الملي" <sup>25</sup>، الشَّيخ " الطَّيب العقي "، والشَّيخ "محمَّد البشير الإبراهيمي"<sup>26</sup>. لقد كانت له مواقف عظيمة لأجل بناء الشَّخصية الثَّقافية الجزائرية من خلال تكوينه التَّكويني الصَّحيح للشَّيخ "عبد الحميد بن باديس"، ومن ذلك ما أوصاه به « أن يقرأ العلم للعلم لا للتوظيف ولا للرَّغيف»<sup>27</sup>، وأخذ عليه عهداً غليظاً ألا يقرب الوظائف الحكومية عند فرنسا حتى لا تكبله بقيودها الثَّقيلة. فاستطاع أن ينفذ إلى أعماق نفسية تلميذه فيطبع حياته العلمية والعملية بطابع روحي وأخلاقي لم يُفارقه طوال حياته. وظلَّ "ابن باديس" يذكر تأثير شيخه على نفسيته بكلِّ إجلال واحترام حتى آخر رفق من حياته<sup>28</sup>.

بهذه الرُّوحية المثوبة والمتقدة نوراً ربانياً جلالياً، وبعزمها المتلازم مع العمل الدَّؤوب، وبحسن تشخيصها وقراءتها للعلل المجتمعية التي كانت تنخر في جسد الجسم الجزائري من جهل وأمية، وإصرارها على التَّأثير فيمن حولها من طلبة علم وعمامة، بنى الشَّيخ "المجاوي" وزملاءه العلماء في كل أنحاء الجزائر نهضة الجزائر الإسلامية العربية الحديثة، وبدأوا الحركة الإصلاحية العظيمة التي استمرت في الجزائر، وكان من ثمارها النُّخبة الإصلاحية التي خلَّفَ أعلامها مشايخهم في قيادة النُّهضة والإصلاح، وليسوا هم الذين أنشؤا الحركة

الإصلاحية الجزائرية، هذا ما يجب تقريره لنكون أوفياء لقادة نهضتنا كلهم، بُراء من التّعصب الممقوت، والجهل بتاريخ وطننا، والعقوق لمشايع مشايخنا رحمهم الله<sup>29</sup>.

والخلاصة أنّ النخبة الإصلاحية قد نهلت من حوض كتلة المحافظين وترتبت في أحضانها وأخذت من دُرر علومها وفُهومها، بالاعتماد على مناهج تعليمها وتعاليمها، وكذلك من خلال صحافتها ذات الجرأة والتّنوير، وواصلت النهج الإصلاحي بقواعد ومرتكزات المحافظة على هوية الأمة الجزائرية، على قاعد التّواصل بين ما مضى وما هو آتٍ من أجيال، مع التّجديد في الطّرح لمشاكل "الجزائر"، فكانت خير دليل للأخذ بيد الشّعب الجزائري نحو نفص غبار الجهالة والأمية، والرّفع من إدراكاته لواقعه الثّقافي والتّعليمي، الاجتماعي ثم الاقتصادي الموصّل إلى فهم الواقع السّياسي المحيط به.

وحتى تواصل النخبة الإصلاحية تزخيم الفعل المقاوم لكتلة المحافظين، ماهي الآليات التي استندت إليها؟

#### رابعاً: آليات النخبة الإصلاحية لتطبيق برنامجها في بثّ الوعي الوطني:

شخّص قادة النخبة الإصلاحية حالة التّردّي الثّقافي وانخفاض مستوى الوعي عند الفرد الجزائري، بسبب الجهل والامية المفروضة عليه من طرف الاحتلال. فوجدوا أنه لا دواء لهذا الدّاء العضال المركب إلّا التّعليم، فكيف كان أداءهم الميداني في هذا المجال، وكيف فعّلوا هذه الآلية الموروثة عن شيوخهم؟

#### أ) - نشر التّعليم:

انطلقت النخبة الإصلاحية في سياستها التّعليمية من خلال دراستها للواقع المجتمعي للشعب الجزائري بعد أن وضعت يدها على مكامن الدّاء، فراحت تصنع الدّواء الذي مثله التّعليم بأدواته: المدرسة، والمعلم، والمنهج التّعليمي الذي تريد تدريسه للمتعلّمين.

وانطلقت في تعليم الشَّباب الجزائري في حينه وتثقيفه على نطاقٍ واسعٍ في شتى المناطق الجزائرية<sup>30</sup>.

هذه المدارس في أساسها هي ملك للأمة، لأنها أنشأت بواسطة التبرعات العامة تحت إشراف علماء النخبة الإصلاحية (جمعية العلماء)، التي تزودها بالمعلمين والبرامج الدراسية والكتب، ووسائل الإيضاح التعليمية وغيرها من اللوازم الدراسية الأخرى.

وقد بلغ مجموع المدارس التابعة إلى النخبة الإصلاحية (جمعية العلماء) حتى سنة 1954م أكثر من 150 مدرسة يتروّد عليها أكثر من خمسين ألف طفل وطفلة يدرسون فيها مبادئ اللغة العربية وآدابها، أصول الدِّين الإسلامي، والتَّاريخ الجزائري والإسلامي وفق برنامج يجمع بين ضرورات العلم، وبي واجبايات التَّربية الإسلامية والقومية، والوطنية الصَّحيحة<sup>31</sup>.

كما اهتمت النخبة الإصلاحية بالرفع من مستوى التَّحصيل العلمي لدى المنتسبين إلى مدارسها، فقامت بإرسالهم إلى جامع الزَّيتونة الأعظم "بتونس" وتأطير حركتهم هناك بأنشاء "جمعية الطَّلبة الجزائريين الزَّيتونيين" للسهر على شؤونهم ورعايتهم<sup>32</sup>.

لقد أضافت النخبة الإصلاحية في مجال التَّعليم البعد التَّنظيمي المستند إلى التَّطوير والتَّحديث والتَّشبه بواقع وحال التَّعليم في الزَّيتونة، من موقع للدراسة، وأدوات، ومناهج... إلخ، لأنَّ أغلب رواد هذا المجال تتلمذوا في الزَّيتونة ورفعوا من مداركهم هناك لأجل استثمارها في أبناء الشَّعب الجزائري علماً ومعرفة. كما أنها سعت سعياً حثيثاً إلى نشر مدارسها في معظم أنحاء الجزائر<sup>33</sup>.

وإذا كان هذا واقع وحال التَّعليم الذي أجره الله على يدها، فكيف كان فعلها الصُّحفي؟

(ب) - الصَّحافة:

كانت الصَّحافة في تلك الفترة معول البناء الذي يعوّل عليه كثيرا في بناء الوعي، مما استلزم خصالاً حميدة من أصحابها حتى تؤدي رسالتها في المجتمع الجزائري، وتكون كما وُصفت «..مدارس متجوّلة لبست محصورة بين جدران، ولا يختص بها مكان دون مكان، وهي أوسع دائرة للإرشاد من كلّ دوائر التّعليم، تهذب العامة، وترتب أفكار الخاصة، وتهض المهمم القاعدة وتصلح الألسن الفاسدة وتقرّب الأمم المتباعدة، وهي سجل الأخبار ووعاء التّاريخ وتقوم الزّمن»<sup>34</sup>.

من هذه المنطلقات وبناءً على الهدف الذي رسمته النُّخبة الإصلاحية ألا وهو إصلاح المجتمع والنّهوض به من حالة السُّبات التي تظافت عدّة أسباب لطول وجودها، فقد اتخذت من الصَّحافة وسيلة أساسية لنشر أفكارها منذ سنة 1925م، من خلال انشائها لجريدة "المنتقد"<sup>35</sup>.

بعد اغلاق "المنتقد" سنة 1925م تمّ تأسيس جريدة "الشَّهاب" في نفس السّنة من طرف رئيس الجماعة الإصلاحية الشّيخ "عبد الحميد بن باديس" مع اصطناع نوع من المرونة السّياسية، وسار على خطى وخطة "المنتقد" لنشر فكرة الإصلاح. وكان لهذه المرونة التي تميزت بها جريدة "الشَّهاب" دور في الاحتفاظ بها حتى نهاية سنة 1939م، علاوة على الطّابع الدّيني الذي خرجت به هذه الصّحيفة جريدة ومجلة<sup>36</sup>.

وقد تناولت هذه المجلة الكثير من مشاكل تلك الحقبة كالجهل، الأمية، التّشردم، الاحتلال وأعوانه، ووصفت لها حلولاً تناسب تلك الحقبة، ولم تقتصر هذه الحلول على المسائل الجزائرية، ولا الإفريقية الإقليمية، ولا الشّرقية الإسلامية فحسب، بل حتى الإنسانية العالمية<sup>37</sup>. ولقد تجند الكثير من أعضاء النُّخبة الإصلاحية للكتابة في هذه الصّحيفة: فاختص الشّيخ "أحمد توفيق المدني" بالكتابة عن المجتمع الجزائري. و"محمّد السّعيد الزّاهري" بالمقالات الإصلاحية، والدّعوة إلى تجديد الإسلام وتطهيره من البدع والخرافات. وفي سنة 1933م تمّ تخصيص جزء من "الشَّهاب" تنشر فيه جمعية العلماء

المسلمين الجزائريين خطبها، ومحاضراتها، وفتويها وجميع منشوراتها العلمية. ثم أصدرت النخبة الإصلاحية بعد ذلك ممثلة "بجمعية العلماء" جرائد خاصة بما كـ"الشريعة المحمدية" و "السنة النبوية" و "الصراط السنوي"<sup>38</sup>.

وفي سنة 1935م أسست النخبة الإصلاحية جريدة "البصائر" التي كانت تحمل شعار مبعثه آية قرآنية قال تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾<sup>39</sup> وأصبحت لسانها الرسمي، وهي الجريدة التي كانت تحمل راية البيان العربي بشمال إفريقيا، وتكافح من أجل إحياء اللغة العربية وإرجاع الإسلام إلى عهده الزاهر<sup>40</sup>.

لم تقتصر صحافة النخبة الإصلاحية على نشر فكرة الإصلاح الديني فحسب، بل كانت تقوم بدور المعلم المرشد، والمربي بما تنشره من دروس وتوجيهات تربوية بين كل المسلمين الجزائريين وفي شتى الأماكن دفاعاً عن الفضيلة<sup>41</sup>. وأهم عبء حملته على كاهلها هو محاربة التخلف، والعمل على إحياء الشخصية الجزائرية وربطها بالوطن العربي والإسلامي، وإبراز معالم التاريخ الوطني من أقدم العصور حتى أيامها، والمتصفح للصحف العربية في الجزائر خلال عقد الثلاثينات يجد فصولاً كاملة من كتب العلماء المؤرخين، ككتاب الشيخ "الميلي" المعنون بـ"تاريخ الجزائر في القديم والحديث" الذي نُشر لقراءة الصحافة العربية مستهدفةً اطلاع الجمهور على مراحل الكفاح الذي سجله الأجداد في مختلف العصور ضد المحتلين الأجانب<sup>42</sup>.

إما في فترة وقوع الحرب العالمية الثانية بين 1939م و 1945م، فقد وقع ركود في صفوف صحافة النخبة الإصلاحية، ما عدى جريدة "الإصلاح" التي أصدرها الشيخ "الطيب العقبي" بعد انسحابه من "جمعية العلماء"، وجريدة "الوفاق" التي كان يصدرها الشيخ "الزاهري"، لكن هذا الركود لم ينقص من جذوة الوعي الوطني الذي أثارته النخبة الإصلاحية في صلب جماهير الشعب الجزائري<sup>43</sup>.

## الخاتمة:

- يمكننا اعتبار المحافظين المؤسسين الحقيقيين للحركة الإصلاحية في الجزائر قبل ظهور النُّخبة الإصلاحية ممثلة بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.
- تعتبر كتلة المحافظين جماعة ذات بنية ثقافية دينية اجتماعية مثَّلت الرَّمزية داخل المجتمع الجزائري في تلك الحقبة، نحت منحى التَّوعية لأجل صرفها في التحرر عن طريق الرِّفع من المستوى التَّكويني للفرد الجزائري وكى وعيه لأجل النهوض والتَّغيير.
- ساعد نشاط كتلة المحافظين قبل الحرب العالمية الأولى في مجال التَّعليم والتَّدریس بكل أنواعه بين أوساط الجزائريين على انتشار بعض المفاهيم، مثل: التَّقدم، والحقوق. ومهد هذا الأمر إلى بناء جيل جديد يحمل منطلقات وأهداف أسلافه ممثلاً في النُّخبة الإصلاحية.
- لعبت الصَّحافة العربية بالرغم من قتلها دوراً وطنياً، وثقافياً، وأخلاقياً وسياسياً في نشر الوعي الوطني.
- عاشت كتلة المحافظين والنُّخبة الإصلاحية حالة من المُجايبة تكاد تكون فريدة في حصولها بين جيلين، حيث أنَّ المحافظين زرعوا البذرة، والإصلاحيون حموها وتعهدوها بالرَّعاية متبعين نفس الآليات لقطف الثَّمار.
- جدد الإصلاحيون في طريق تفعيل الآليات التي سخرتها كتلة المحافظين لبرنامجها، من خلال وضع برنامج توعوي مدروس الخطوات تعليمياً وتدریساً، وصحافة هادفة مستعدة لأي طارئ بسبب مضايقات الإدارة الفرنسية، فكان الثَّناج غزيراً ونوعياً. وما يفسر هذا الثَّناج هو الحراك السِّياسي الذي دخلت فيه الحركة الوطنية حتى تفجير الثَّورة سنة 1954م.

- لقد أدت حالة التُّضج والوعي التي دخل فيها الشَّعب الجزائري بفضل جهود النُّخبتين المحافظة والإصلاحية إلى استشعار الأخطار المحيطة به والتي يُحيكها المحتل ضده



وخاصة في جانبها الاقتصادي فاستجاب إلى أطروحات قاداته من النُّخبة الإصلاحية التي أسست لمنظومة اقتصادية تكسر الاحتكار اليهودي والاستعماري، وتأسس لاقتصاد إسلامي يبنني على مبدأ التَّكافل الاجتماعي تحت مسمى شركة "آمال" للشمال الإفريقي في 03 ديسمبر 1942م التي ذكرها الشَّيخ "محمَّد خير الدِّين" في مذكراته. وعليه يمكننا القول أنَّ النُّخبة الإصلاحية بالجزائر مسارها مُحافظ، وكتلة المحافظين هوأها إصلاحية.

### الهوامش:

- 1 - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج.2، طبعة خاصة، دار البصائر، الجزائر، 2007م، ص.145.
- 2 - أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص.147.
- 3 - علي مزاد: الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، تر: محمَّد بيجاتن، ط.1، دار الحكمة، الجزائر، 2007م، ص.91.
- 4 - أندري ديرليك: عبد الحميد بن باديس، تر: مازن بن صلاح مطبقاني، ط.1، عالم الأفكار، الجزائر، 2013م، ص.179.
- 5 - ناجي الغزي: مفهوم الوعي السياسي، الرّأي: موقع إلكتروني: <http://www.alrayy.com/473.htm>.
- 6 - عبد الوهاب شلال: «دور جماعة المحافظين في بلورة الوعي السياسي الدّاخلية»، الملتقى التّاريخي الأوّل في التّاريخ السّياسي، إرهاصات الفكر التّحرري في الجزائر قيل ظهور نجم شمال إفريقيا 1900 - 1919م، يومي 25 و 26 أبريل 2011م، بالمركز الجامعي بالوادي. منشورات الاتحاد الوطني للطلبة الجزائريين، الجزائر، 2012م، ص.57.
- 7 - أبو القاسم سعد الله: المرجع السّابق، ص.147.
- 8 - تأسست سنة 1902م وترأسها السّيد "سروي - Sarrouy". انظر: Maurice Poulard: «L'enseignement pour les Indigènes en Algérie», Imp. Administrative Gojosso, Alger, 1910, p. 334 - 335.
- 9 - أحمد صاري: شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر، ط.1، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 2004م، ص.110.

- 10 - سعيد مزيان: النشاط التنصيري للكاردينال لافيغري في الجزائر 1867 - 1892م، ط.1، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص.303 - 325.
- 11 - محمد بن صالح ناصر: الصحف العربية الجزائرية 1847 - 1954م، ط.2، ألفا ديزان، الجزائر، 2006م، ص.40.
- 12 - محمد بن صالح ناصر: المرجع نفسه، ص.42.
- 13 - علي الوردى: وَعَاظ السَّلَاطِين، ط.2، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1995م، ص.250.
- 14 - محمد بن صالح ناصر: المرجع السابق، ص.43.
- 15 - نسخ موحودة بالخزانة الأرشيفية للزاوية الشجانية، أول نسخة بتاريخ 21 أبريل 1867م.
- 16 - «إنَّ السُّلْطَانَ عبد الحميد الخليفة العثماني الدَّاعِيَة الذي بنى الجامعة الإسلامية وشيَّد أركانها وأضاف إليها كل مطمع بعيد وغاية حليلة، والذي ظلَّت دعوته تسير سيراً متوالياً مدة تقرب من ثلاثين سنة». وهذا يعني أنه منذ تسلمه الخلافة - تقريباً - بدأ دعوته للجامعة الإسلامية. انظر: جمال الدين الأفغاني: الأعمال الكاملة، تح: محمد عمارة، ج.1، ط.1، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 2001م، ص.65.
- 17 - جورج أنطونيوس: يقظة العرب، تر: ناصر الدين الأسد و إحسان عباس، ط.1، دار العلم للملايين، بيروت، 1979م، ص.11.
- 18 - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج.3، ط.6، دار البصائر، الجزائر، 2009م، ص.94.
- 19 - علي مزاد: المرجع السابق، ص.37.
- 20 - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «جالسوا الكبراء، وسانلوا العلماء، وخالطوا الحكماء». انظر: جلال الدين الشيبوطي: الجامع الصغير، رقم الحديث: 3577.
- 21 - محمد علي دبور: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج.1، ط.1، عالم المعرفة، الجزائر، 2013م، ص.100.
- 22 - محمد علي دبور: المرجع نفسه، ص.105.
- 23 - محمد الصالح الصديق: أعلام من المغرب العربي، ج.1، ط.1، موفم للنشر، الجزائر، 2008م، ص.42.
- 24 - فيلاي عبد العزيز: وثائق جديدة عن جوانب حقبة في حياة ابن باديس الدرّاسية، ط.1، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2012م، ص.49.
- 25 - محمد علي دبور: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج.3، ط.1، عالم المعرفة، الجزائر، 2013م، ص.52.
- 26 - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج.3، المرجع السابق، ص.130.
- 27 - بن رمضان محمد الصالح: «نشأة ابن باديس»، مجلة أفريقيا الشمالية، ماي. 1949م، ع.04، ص.43. والبصائر، ع.226، الصّادر في: 17 أبريل 1953م. و ع.227، الصّادر في: 24 أبريل 1953م.

- 28 - تُركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، ط.2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م، ص.164.
- 29 - محمد علي دبو: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج.3، المرجع السابق، ص.50.
- 30 - تُركي رابح: المرجع السابق، ص.359.
- 31 - محاضرة: محمد البشير الإبراهيمي: «مشكلة العروبة في الجزائر»، كتاب الأصفياء، نشر: محمد علي الخوماني، ط.1، دار مصر للطباعة، القاهرة، 1955م، ص.211.
- 32 - خير الدين شترة: الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900 - 1956م، ج.2، طبعة خاصة، دار البصائر، الجزائر، 2009م، ص.1220.
- 33 - تُركي رابح: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ط.2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص.200.
- 34 - أبو اليقظان: «الصحافة الأهلية في القطر الجزائري»، جريدة الأمة، ع.106، السنة الثالثة، 19 جانفي 1937م، ص.3.
- 35 - تأسست جريدة المنتقد، وظهر أول عدد منها في يوم 02 جويلية 1925م بقسنطينة، وكانت تصدر صبيحة كل يوم خميس من كل أسبوع. كان التعريف الكامل بالمنتقد يُقرأ كما يلي: المنتقد جريدة حزبة وطنية تعمل لسعادة الأمة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديمقراطية، جريدة سياسية تهذيبية انتقادية شعارها: الحق فوق كل واحد والوطن قبل كل شيء تصدرا نخبة من الشبيبة الجزائرية. انظر: كل أعداد المنتقد، جمع: الهادي قطش، ط.1، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009م.
- 36 - عبد الكريم وصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطوّر الحركة الوطنية الجزائرية 1931 - 1945م، ط.1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1981م، ص.140.
- 37 - أحمد بن ذياب: «عبد الحميد بن باديس»، جريدة البصائر، ع.77، الصّادر في: 25 أفريل 1949م، ص.2.
- 38 - جريدة الشهاب، مج.10، ج.9، أوت 1934م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002م، ص.377.
- 39 - سورة الأنعام: الآية.104. انظر: جريدة البصائر، ع.01، الصّادر في: 27 ديسمبر 1935م.
- 40 - «أساليب الاستعمار الفرنسي في مكافحة اللغة العربية»، جريدة البصائر، ع.78، الصّادر في: 02 ماي 1949م، ص.3.
- 41 - قال الشيخ "مبارك الملي" في شأن الصحافة ودورها: «وإنّ من أهم الخطط، وأعم الوسائل لتحقيق الغايات، ونشر الدّعوات: إنشاء الصحف السّيارة التي تحفظ جيد الأقوال، وسديد النظريات، وتدخل بما على الطالب في مسكنه، وعلى التّاجر في متجره، وعلى الصّانع في مصنعه، وعلى المألّ في ناديهم، وعلى المسافرين في مراكبهم، بل لا يحجبها على الفتيات خدر، ولا حرس، ولا يحول بينها وبينهن خفر ولا شرس، وما وجدت فكرة الإصلاح الدّيني،

بأرض الجزائر حتى وُجدت لها صُحف تعبر عنها، وتبشر بها، وتدافع عنها». انظر: مبارك بن محمَّد الميلي: «انتقال

الإدارة»، جريدة البصائر، ع.84، الصَّادر في: 29 أكتوبر 1937م. ص.1.

42 - عبد الكريم وصفصاف: المرجع السَّابق، ص.143.

43 - علي مزاد: المرجع السَّابق، ص.187.